القرآن الكريم المعجزة الخالدة التحدي الكامل عبر العصور

د. ضياء المصطفى *

د. محمد سرفراز خالد *

The Holy Qur'an is the Word of Allah Subhanaho wa Ta'ala. It is possessed of the zenith of diction, the acme of Style, the epitome of eloquence and the diversity of subject-matter. Intellectual and philosophical profundity is a hall-mark of its grandeur. It is in line with the vicissitudes of times and the needs of the hour. It is, in other words, a solution to all the potential problems. Modern discoveries and insights and inventions owe their existence to the Holy Qur'an. Allah-u- Ta'ala whose Word it is, is All- Powerful. There is no one like unto Him. Efforts were made in the distant past to find comparisons and imitations of it, but that proved to be a miserable fiasco. The Holy Qur'an itself has thrown a challenge to the entire world which also bespeaks its status as the Word of Allah-u- Ta'ala. The said challenge will stand till the Day of Judgment. So far, no one has accepted the challenge. All are helpless before it. Not a single line has been composed to equal its magnificence. It is inimitable. The following is an account of the miraculous challenge of the Holy Qur'an.

Keywords:

المعتزلة، الدولة، المتوكل، الدفاع، الإعجاز، المقارعة، الإمام، القاضي، المدافعة، الأكمه، الأبرص، الأعمى، البسط.

إن إعجاز القرآن العظيم هو حيث عجز جميع الناس عن الإتيان بمثله. ثم اختلف الناس من القديم في وجوه إعجازه، وقد ظهر هذا الاختلاف عندما ظهر علم الكلام مع ظهور المعتزلة. وبدأ فيه الكلام على مسألة الإعجاز كما يظهر في القرن الثالث من الهجرة. فقد ألف فيه كتاب "الدين والدولة" في الدفاع عن الإسلام، وإثبات النبوة للرسول العربي صلى الله تعالى عليه وسلم، ومؤلفه علي بن رين الطبري مولى المتوكل أورد فيه براهين على نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. واختص الباب السابع منه القول بأن القرءان هو معجزة النبوة.

وقد تكلم في هذه المسألة أبو الحسن الأشعري وضاعت أكثر كتبه ولم يصل إلينا إلا كتاب "مقالات الإسلاميين." ومن أشهر المتكلمين الذين بحثوا مسالة الإعجاز محمد بن يزيد الواسطي، وعلي بن عيسى الرماني، وله كتاب "النكت في إعجاز القرءان"(1) وهو رسالة صغيرة. وهي في الأصل جواب سؤال وجه للمؤلف عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وهذا الجواب يتلخص في أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة،

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها الكلية الإسلامية الحكومية. سول لائنز لاهور-

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية والعلوم الإسلامية جامعة الكلية الحكومية. لاهور-

والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجز، وأحمدبن الخطابي صاحب كتاب "بيان إعجاز القرءان" قال فيه:" إنما هاء القرءان معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم و معلوم ان الاتيان بمثل هذه الامور و الجمع بين اشتاتها حتي تنتظم و تتسق امر تعجز عنه قوي البشر ولا تبلغه قدرتهم فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله ومناقضته في شكله." (2) وأبو بكر محمد الباقلاني له كتاب " إعجاز القرءان"، وأحمد بن يحيى سراقة، والشريف المرتضى وممن جعلوها جزءا من كتبهم التي وصلت إلينا، وابن حزم في كتابه لفصل في "الملل والأهواء والنحل"، والإمام الغزالي في كتابه " الاقتصاد في الاعتقاد " والقاضي عياض في كتابه :" الشفاء". (3)

وتأريخ هذه المسألة والذين تكلموا فيها فألفوا ودونوا طويل لا تصلح ميل هذه العجالة أن تحيط بذكر أسمائهم وآرائهم. فقد حاول عدد من العلماء المحدثين أن يؤرخوا أسماء العلماء الذين تصدوا لفكرة إعجاز القرءان وأبدوا فيها آرائهم (4) وربما كان من إعجاز القرآن العظيم أن الناس مازالوا حيارى يتطرفون الكلام في إعجازه، فمنهم من يرى الإعجاز في مضادة كلمته، وبلاغة أساليبه، ومنهم من يراه في روعة كلامه وجماله، ومنهم من يراه في قصصه وإخباره، ومنهم من يراه في إخباره عن المغيبات والأخبار المستقبلة وما إلى ذلك. (5)

ومهما يكن من أمر فإن القرآن العظيم هو صورة وفاء الوعد السماوي الذي وعد به الله آدم عليه السلام عند هبوطه إلى الأرض، وهو هدى كامل يأخذ بإصبع طالبه المخلص، ويوصله إلى السعادة والنجاح وهو بشرى للبشرية الجمعاء ، ينفي عن الإنسان الحزن على ما مضى، ويضمن له الأمان عن الخوف سيأتي. قال الله تعالى:

" قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ"(6)

وما زال الإنسان محتاجا إلى الهداية والإرشاد ينزلان من السماء من حين إلى حين. وما زالت عقليته تنمو، وما زالت فطنته تتطور، وما زال ذكاؤه ينضج حتى أراد الله سبحانه وتعالى أن تشيع رحمته في العالم، ويشمل فضله البر والبحر. وأراد أن يخرج البشرية من ظلام الجهل والعنجهية والضلال إلى نور العلم والأناة والهدى قال الله تعالى:

"بعث في الأميين رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة".(7)

فجعله خلاصة الإنسانية ، وعصارة ذهن الأنبياء والرسل السابقين، فأعطاه الرسالة الكاملة، والنبوة الشاملة"يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا" (8) "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"،(9) فكتب له شهادة كبرى وبشر به الإنسانية بشارة عظمى. وحذر به من خالف أمر أو مال عن طريقه وأولى على الذين اتبعوه فضله العظيم وكرمه العميم، وجعلهم بغاية لطفه وتكرمه مستحقين له:

"إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا "(10)

والسيوطي :"وقدر لنبوته ورسالته الخلود، فأيده بالمعجزة الخالدة، لنظل معها عبر العصور، ولتبقى بقاء الأعمار والدهور، ترشد المؤمنين المطيعين وتتحدى المنكرين المعاندين، فيجذب أنظارهم، ويلفت أفكارهم لعلهم ينتبهون، ويرجعون إلى سبيل ربهم فينجحون." هذه المعجزة الخالدة لسيد خير الأنام صلى الله تعالى عليه وسلم القرآن العظيم، فهو ليس ببدع من المرسل. قال الله سبحانه وتعالى :

" قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ "(11)

فقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى بإرسال المرسل لهداية الناس وتأييدهم بمعجزات تدل على صدقهم وكونهم مبعوثين حقا وكان من المفروض أن يكون هذا الدليل خارقا للعادة حيث بعجز عامة الناس عن الإتيان بمثله. ولذلك يسمى معجزة، ومن هنا يتم الدليل ويصح التحدي.

ويستنبط من نصوص القرآن الكريم ، وقد تقرر عند العلماء بتتبع تواريخ الأنبياء بأن هذا التأييد لدعوة الأنبياء وكان من جنس تلك العلوم والفنون التي وصلت عند أقوامهم القمة. فلما ظهر على يد رسول من رسل الله صلوات الله تعالى عليهم أجمعين شيء من ذلك الجنس لكنه فاق كل ما كان من صنع الناس. تبين بأنه فوق طاقة البشر ويعجز عن الإتيان بمثله جميع الناس. وهذا هو الإعجاز، فيكون خارقا للعادة فإطفاء النار الملتهبة وتصيرها بردا وسلاما، كانا أمرين خارقين للعادة يقول الدكتور حفني محمد شرف في معجزات موسى عليه السلام أنه حين بعث إلى قومه الذين اشتهروا بالسحر، وضربوا فيه بسهم وافر يشاء الله أن تكون معجزته من قبيل الغريب العجيب:

" فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ"(12)

ثم يقول الدكتور حفني محمد شرف في معجزة عيسى عليه السلام أنه حين أرسل إلى قوم كانت لهم شهرة في الطب والحكمة، شاء عز اسمه أن يجري على أيدي عيسى إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله. وبعد ما ضرب هذين المثلين علق عليها بقوله وقد يقال:" إن المعجزات قد أتت حقيقة من جنس ما شاع وذاع، ولكنها امتازت بزيادة بالغة وفصيلة تقصر دونها الهمم. فعصا موسى تلقف ما كانوا يأفكون، وحكمة عيسى فاقت جميع الحكم حين يحي الموتى بإذن الله. إذا علمنا هذا أدركنا قيمة النفاسة في معجزة سيدنا محمد مصطفى عليه صلوات وتسليماته. وكيف كانت، وهي القرآن الكريم حجة على رسالته برهانا على صدق دعوته وقد بلغته غاية الفصاحة ونهاية البلاغة بين قوم لا يخلون في جملتهم من شاعر فصل أو خطيب مصقع. فمن هنا فقد كان القرآن الكريم جامعا لفنون البلاغة، حاديا لأطراف البيان والفصاحة، محكما في نظمه حتى إنك تحسب ألفاظه لجمالها وروعتها منقادة لمعانيه. فإذا ما تغلغلت فيه وجدت معانيه منقادة لألفاظه. فإذا رجعت البصر مرة ومرة فإنك

ستظل مترددا بين انقياد معانيه لألفاظه، وانقياد ألفاظه لمعانيه حتى تؤمن أخيرا بأنك تقرأ كلاما ليس من كلام البشر." (13)

وقد ظهرت بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمور كثيرة، يعجز عن الإتيان بمثلها الناس. وتعد من بين معجزات مثل شق القمر(14)، وانفجار الماء من بين أصابع يده الشريفة (15)، والبركة في اللبن، حيث شرب عدد كبير من قدح واحد، واللبن كما كان.(16) والبركة في الطعام كما حدث خلال أيام غزوة الأحزاب وفي طعام أبي طلحة(17)، كثيرة عديدة. وهي مروية منقولة في كتب السيرة، والخصائص والتأريخ. لكن جميعها مؤقتة وكانت آثارا مباركة لذات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأما المعجزة الحقيقية لرسالته صلى الله تعالى عليه وسلم فهي القرآن الكريم، ومما يدل على ذلك أن القرآن الكريم مازال زمان نزوله يصدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحقق دعوته، ويحدي منكره ومعانده. فبدأ التحدي بإتيان الكلام مثله:

" فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ "(18)

بإتيان الكلام مثله فما استطاعوا أن يأتوا بمثله، وأنى لهم هذا، وكيف يمكن للعبد أن يقوم إلى درجة الربوبية، وأنى لهم همة، يقصد بها إلى المرام، وأين القصد وأين المرام؟ هذا كلام الله الملك العزيز العلام فأنى لعبد ضعيف من عباده أن يأتي بمثل كلامه. ولما لم يفهم كثير منهم الحقيقة، وما زالوا في عماهم وغوايتهم يعمهون. نبههم على سوء فهمهم وفساد عقلهم، ولفت إلى الحقيقة أذهانهم فقال:

" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "(19)

ففي هذا التنزل توسيع المجال لهم وترخيص لهم، وكل هذا ليتبين لهم عجزهم. ونتيجة لذلك يتضح لهم كون القرآن كلام الله العلي المتعال. وقد تركوا في هذا الترخيص والتوسيع، ولكنهم لم يجدوا ملكة تعينهم على الإتيان بمثل القرآن، فلما ظهر عجزهم رخص لهم أيما ترخيص، فطلب منهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة وقد وردت الأخبار أن هذا التحدي كان في أقصر سورة من القرآن الكريم حيث عرضت سورة الكوثر للتحدي وهي تشمل ثلاث آي. ففيه تبكيت للمعاندين وتحذير شديد لهم، كما فيه تبشير للنبي الكريم وتثبيت لقلبه المبارك، قال الله عز جلاله :

" وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"(20)

يقول الدكتور حفني محمد شرف: " فلما ظهر عجزهم عن الإتيان بمثل اقصر سورة لزمتهم الحجة لزوما واضحا، وانقطعوا انقطاعا فاضحا، والضمير في قوله تعالى (مثله) يرجع في كل الآيات على منزل لا إلى المنزل عليه، حتى لا يكون هناك تضييق في التحدي ومقتضى التنزل من الكل إلى العشر. ومن العشر إلى الواحدة، التوسيع فيه. وأما أنه لم يعارض، فلأنه لو عورض لشاع لتوفر الدواعي إلى نقله، وعدم الصارف عنه، والعلم بذلك قطعي كسائر القطعيات لا يقدح فيه احتمال أنهم عارضوا ولم ينقل إلينا كمانع كعدم المبالاة وقلة الالتفات والاشتغال بمهام الأمور، وأقول كما قال التفتازاني في شرح المقاصد: إن رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم تحدى بالقرآن الكريم، ودعا إلى الإتيان بسورة من مثله مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب وغيرهم مع كثرتهم كثرة حصى البطحاء وشهرتهم بغاية العصبية والحمية الجاهلية، وتهالكهم على المبالاة والمباراة وركوب الشطط في هذا الباب، فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة، فلو قدروا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنقل إلينا لتوفر الدواعي وعدم الصارف." (21)

فمعجزة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هي "القرآن الكريم" وهو يدعو الناس إلى سبيل ربهم، ويبشر أتباعه ويضمن لهم النجاة والسعادة ويحذر معانديه ومنكريه ويخوفهم من عذاب الله وسوء العاقبة، فبكلا موقفيه يريد هداية الناس أجمعين، وينور لهم الطريق يحقق لهم الفوز والفلاح. ولذلك يحمل بين دفتيه علوم الأولين والآخرين. قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:" وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل البسط... على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمرا من أمره... لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى الحقائق المعلوم، وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها، بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونا على تفسير بعض معاني القرآن، والكشف عن حقائقه، وإن فيها لجماما ودربة لمن يتعاطي ذلك، يحكم بها من الصواب ناحية ويحرز من الرأي جانبا، وهي تفتق لها الذهن، وتؤتيه بالغرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه، وتخرج له البرهان وإن كان في طبقات الأرض وتنزل عليه الحجة وإن كان في طباق السماء."(22)

"ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع من تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة، وهي تحقيق الإسلام، وأنه الحق الذي لا مرية فيه، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأنه لذلك هو الدين الطبيعي للإنسانية وسيكون العقل الإنساني آخر نبي في الأرض، لأن الذي جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس، إذ جاءهم بهذا الدين الكامل، ولا حاجة بالكمال الإنساني لغير العقول ينبه إليها بعضها بعضا، ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض. وقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه "(23)... وذلك قوله سبحانه وتعالى":

" سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"(24)

"ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى " فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ " هذه الآفاق وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الإفهام شيء.ذلك وإن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور، لضعف وسائلهم العلمية، ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السماوات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه فكلما تقدم النظر وجمعت العلوم ونازعت إلى

الكشف والاختراع، واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن الكريم أيضاً "وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ "(25) ذلك هو الأمر في العلوم الأولى ثم الله ينشئ النشأة الآخرة." (26)

هذا هو القرآن العظيم، وهو معجزة خاتم الأنبياء صلى الله تعالى عليه وسلم الذي به تم قصر النبوة وكمل دين الله عز شأنه وتمت نعمته على العباد، فشملت رحمته جميع الناس، فكأنه لا بد للمعجزة التي تؤتى لتأييد نبوته ورسالته أن تكون مختلفة تماما من التي أعطاها الأنبياء السابقون، قال الشيخ محمد عبده: "وكأن السائد في الديانات السابقة أن تكون الآيات الدالة على صدق الأنبياء حسية لأنها كانت لا تخاطب العقول، لأن العقول لم تبلغ بعد درجة النضج والرشاد، وإنما كانت تعتمد على خوارق العادات من المعجزات المادية الملموسة لأن الطفل لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه تماما الإدراك، فالنار تتحول إلى برد وسلام، والعصا تنقلب ثعبانا، والجبل يرتفع فوق الرؤوس ثم يعود إلى مكانه، والبحر ينفلق إلى شقين، كل شر منهما كالطود العظيم، والصخرة تنشق فتخرج منها ناقة ثمود، وعيسى يبرئ الأكمه والأبرص والأعمى، ويحي الموتى بإذن الله، وهكذا كانت تتوالى المعجزات الحسية المادية لتأييد الرسالات، بدلا من أن تتوالى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية، والشواهد العلمية لأن الله ادخرها إلى أن يبلغ العقل البشري النضج والتمام، فتهبط عليه رسالة الإسلام. وقد جرت علي يد سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعض المعجزات المادية ليعتبر بها من تخلف عقله عن إدراك المعنويات، ولكن آخر الأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام، كانت معجزة عقلية خالدة، ليست محدودة بزمان ولا مكان، وليست مقصورة على من يشاهدون المعجزات المادية وحدهم في فترة محدودة وهم قلة محدودة، وهم غير حجة على من لم يشاهد أمثال هذه المعجزات."(27)

" أما معجزة الإسلام المعنوية الخالدة التي يعرضها الله على جميع العقول في جميع العصور فهي "القرآن الكريم" وهو معجزة قائمة على النظر العقلي، والتدبر الفكري، والاستدلال العلمي مهما اختلفت الصور وتعددت الغايات." (28)

فالقرآن العظيم هو معجزة إمام الأنبياء وختم المرسلين، ولما كانت رسالته قائمة عليها، فهي خالدة سرمدية مستمرة إلى أن يرث الله الأرض وما فيها، كان لا بد لمعجزتها أن تبقى وتدوم عبر العصور، فلذلك ضمن الله سبحانه وتعالى محافظة القرآن الكريم، فقال الله عز وجل: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(29)

ومن لطائف القرآن الكريم وأمارات إعجازه أن يعجب الناس غاية الإعجاب، فمازال الناس منذ نزوله يتعجبون من عجيب أثره، يتحيرون لروعته وجماله، فمن مؤمن مطيع محب له، ومن معاند معاد محسود بأثره العميق منذ بداية نزوله مازال الناس يقفون أمامه حيارى، فالذين يعترفون بإعجازه يعتبرونه معجزة عظمى لخاتم النبيين صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يكادون يتفقون على قول أو رأي يصفون به القرآن

العظيم. ولعل هذا هو إعجازه في كلماته يحس فيه بما هو فوق طاقة البشر، أويجد فيه ما هو خارق للعادة، فمنهم من يرى إعجازه في كلمته، ومنهم من يقول: إن إعجازه في أساليبه، ويقول آخر: إن إعجازه في بلاغته، وأرجح كثير منهم إعجازه قصصه وأخباره، وحين ذهب عدد كبير من العلماء إلى أن إعجازه في علومه وإخباره، عن الزمن السابق كان أو عما هو لاحق، وكذلك كان الإخبار عن الأعيان الظاهرة أوعن تلك المشاعر والعواطف التي هي سرائر النفس لا يعلمها إلا الله العليم الخبير.

والحقيقة أن القرآن العظيم يشمل جميع النواحي والجوانب، وفوق ذلك كثيرا، ولا تزال كثرة كاثرة من ظواهر الإعجاز القرآني مخفية غير ظاهرة حيث لم تصل إليها يد التحقيق، ولم يلتفت إليها نظر المحققين بهذا الشأن، كلما يصل العالم المجتهد المحقق إلى نتيجة صائبة، أو فكرة ثاقبة، أو يتبين له خلا دراسته وتحقيقه الحق، وتتراءي له الحقيقة، يجد القرآن العظيم قد أشار إليها قبل قرون، مع أن القرآن ليس بكتاب العلوم، ولم ينزل ليعلم الناس الفنون، وإنه رسالة الله إلى أهل الأرض، ليسعدوا في حياتهم هذه، وتلك في الآخرة. فالفوز والنجاح مضمنان في العمل به، وفي الامتثال بأوامره، والانتهاء عما نهي عنه.

ولما كان القرآن الكريم أعظم معجزة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن أعظم إعجازه خلق أمة جديدة من تلك الأمة العربية التي كانت تعيش عيشة بدوية متأخرة متخلفة، منعزلة عن أهم المجتمعات البشرية آنذاك. ولم تكن تعد من عير ولا نفير ولكنها عندما وقفت أمام نصوص القرآن تستنطقها وتستخرج جواهر معانيها، وتستنبط لآلى مفاهيمها، معجبة بها، محبة لها، أخذها القرآن الكريم بإصبعها وأوصلها إلى قمة العلا، ونفث فيها روحا جديدة وألهمها العزة والكرامة والمنعة والرفعة، فعاشت في تأريخ البشرية عزيزة النفس منيعة الجانب وقوية الروح، جليلة الشأن. فبرز فيها أئمة هداة، ونشأ فيها علماء أعلام وانتجت الأمة قوادا عظاما، ورجالا بارزين في كل مجال من مجالات الحياة. وكل هذا لأجل القرآن العظيم فإنه كان أخذ بألبابهم، وأسر عقولهم، وسحر نفوسهم حتى سادهم سيادة شاملة فيه يسيرون، ومعه كان يقفون، فجعلوه دستور حياتهم، وإمام أفكارهم، وهاديهم ومرشدهم، وهذا هو أجل أنواع إعجاز القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم عندما يتناول موضوعا أو يشرح أمرا فإنما يفصل ذلك بأسلوب لا غاية وراءه، ولا بلاغة فوقه، وإن كانت قصة أو حكاية واقتضتا الأسلوب القصصي، فلا تغيب الحقيقة في سرد القصة، وإذا كان الموضوع حكما من الأحكام لا يفوته جمال الأسلوب وروعة البيان وسحر الكلام. فهذا هو القرآن الكريم، تراه في فسحة قصصه، وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة، وتراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنضير وتهويل وتعجيب. وصدق الله سبحانه وتعالى إذ يقول في وصفه :" تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"(30)

وأخرج الإمام أحمد في مسنده " عن الحارث بن عبد الله الأعور، قال: قلت: لآتين أمير المؤمنين فلأسألنه عما سمعت العشية. قال: فجئته بعد العشاء فدخلت عليه، فذكر الحديث، قال: ثم

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أتاني جبريل، فقال: يا محمد، إن أمتك مختلفة بعدك. قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: كتاب الله تعالى، به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك – مرتين – قول فصل ، وليس بالهزل، لا تختلقه الألسن، ولا تفنى أعاجيبه، فيه نبأ ما كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم" (31)

وأخرج الإمام الحاكم في المستدرك "عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول الم حرف، ولكن ألف ولام وميم». (32)

هذه هي معجزة النبي الخاتم الخالدة لرسالته الخالدة من أعجب المعجزات لا مثيل له لها في الكتب المنزلة من الله عز وجل، فما زالت إلى يومنا هذا منهلا صافيا طريا، وستظل كذلك إلى أن تقوم الساعة. يقول الأستاذ حسن ضياء الدين لمتر:

"جليلة كثيرة هي مزايا القرآن وملاكها أنه هو الرسالة الإلهية ومعجزاتها الخالدة، وهو الدعوة وبراهينها الدامغة، أجل إنه الشمس وضياؤها، ولا غرو ! فقد اتحد فيه الدليل والمدلول عليه أقوى من اتحاد الروح بالجسد، فالقرآن هو نفسه الوحي الإلهي المنزل، وهو الخارق المعجز للخلائق الدال على إلهية مصدره، فشاهد صدقه في عينه لا ينفك عنه مهما توالت العصور وانقضت الدهور، يقيم للأجيال المتعاقبة براهين دامغة لا تجد الألباب القويمة والأذوات الرفيعة والفطر البريئة سبيلا إلا سبيل الإيمان به والتسليم بنبوة مبلغه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم." (33)

وقال:" وانت ترى أن الأمة الإسلامية ما تزال في تأريخها القديم والحديث ترقى معارج المجد ومدارج الكرامة والرفعة بقدر علمها بكتاب الله المجيد، وتنحط بإهماله والإعراض عنه، لذا فإن المسؤولية عليك وعلى الأمة جمعاء مسؤولية كبرى لا يقبل فيها عذر لمعتذر، و كيف وقد ظهرت لها الحقيقة ظهور الشمس في رابعة النهار؟ وقد ذكرنا الله سبحانه وتعالى بهذه المسؤولية بقوله عز شأنه وجل برهانه":" وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ "(34)

الهوامش

(1)طبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط: دار المعارف، مصر،1976م

(2)وفق المذكور أعلاه.

(3)طبع بدار المعارف، مصر، ت: السيد أحمد صقر

(4)لاحظوا " إعجاز القرآن في آثار الدارسين لعبد الكريم الخطيب، وفكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، مطبعة: مؤسسة الرسالة، بيروت، والإعجاز البياني للقرآن الكريم، للدكتورة عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر

(5)قد ذكر الإمام السيوطي رحمه الله تعالى بالبسط في مؤلفه " معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بمصر.

(6)البقرة 2: 28 (7) الجمعة 62: 2

(8) الأعراف 7: 158 (9) الأنبياء 21: 107

(10) الأحزاب 33: 45-46 (11) الأحقاف 42: 9

(12) الشعراء 26: 32،33

(13) حفني، محمد شرف، إعجاز القرآن البياني: بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، 1970م

(14) "عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : رأيت القمر منشقا بشقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبي صلى الله عليه و سلم شقة على أبي قبيس و شقة على السويداء فقالوا : سحر القمر فنزلت : {اقتربت الساعة و انشق القمر } يقول : كما رأيتم القمر منشقا فإن الذي أخبرتكم عن اقتراب الساعة حق (الحاكم،محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين،دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الحديث:3757، 512/2)"

(15) "عن أنس رضي الله عنه، قال: أتي النبي صلى الله عليه وسلم بإناء، وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، «فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم» قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: ثلاث مائة، أو زهاء ثلاث مائة . (البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ، رقم الحديث: 3572، 192/4)"

(16) "عن مجاهد قال : سمعت أبا هريرة يقول : والذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون فيه فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ومر بي عمر بن الخطاب فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل حتى مر بي أبو القاسم صلى الله عليه و سلم فلما رأى ما بوجهي وما في نفسي قال : (أبا هر) فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك قال : (الحق) فلحقته فدخل إلى أهله فأذن فدخلت فإذا هو بلبن في قدح فقال لأهله : (من أين لكم هذا) ؟ قالوا : هدية فلان أو قال : فلان فقال : (أبا هر الحق إلى أهل الصفة فادعهم) وأهل الصفة أضياف لأهل الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يشركهم فيها وإذا أتته هدية بعث بها إليهم وشركهم فيها وأصاب منها فساءني . والله . ذلك قلت : أين يقع هذا اللبن من أهل الصفة وأنا ورسول الله صلى الله عليه و سلم فانطلقت فدعوتهم فأذن لهم فدخلوا وأخذ القوم مجالسهم قال : (أبا هر) قلت : لبيك يا رسول الله قال : (خذ فناولهم) قال : فجعلت أناول رجلا رجلا فيشرب فإذا روي أخذته فناولت الآخر حتى روي القوم جيمعا ثم انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فرفع رأسه فتبسم وقال : (أبا هر بقيت أنا وأنت) قلت : صدقت يا رسول الله قال : (خذ فاشرب) فما زال يقول : (اشرب) حتى

قلت : والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال : (فأرني الإناء فأعطيته الإناء فشرب البقية وحمد ربه صلى الله عليه و سلم (محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة ، بيروت،الطبعة الثانية ، 1414ھ/ 1993م، رقم الحديث: 6535، 471/14)"

(17) "عن أنس ابن مالك قال: بعثني أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم لأدعوه وقد جعل طعاما قال فأقبلت ورسول الله صلى الله عليه و سلم مع الناس فنظر إلي فاستحييت فقلت أجب أبا طلحة فقال للناس (قوموا) فقال أبو طلحة يا رسول الله إنما صنعت لك شيئا قال فمسها رسول الله صلى الله عليه و سلم ودعا فيها بالبركة ثم قال (أدخل نفرا من أصحابي عشرة) وقال (كلوا) وأخرج لهم شيئا من بين أصابعه فأكلوا حتى شبعوا فخرجوا فقال (أدخل عشرة) فأكلوا حتى شبعوا فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع ثم هيأها فإذا هي مثلها حين أكلوا منها. (مسلم بن الحجاج،صحيح مسلم،دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث : 2040، 1612/3)"

(18) الطور 52: 34 (19) هود 11: 13

(20) البقرة 2: 23،24

(21) حفني،إعجاز القرآن البياني: بين النظرية والتطبيق، ص: 7،8

(22) الرافعي،مصطفي صادق بن عبدالرزاق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتب العربي، بيروت، ھ 5241،ص: 128،129 (23) ايضا

(24) فصلت 41 : 53 (25) يوسف 12: 21

(26) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 128،129

(27) من محاضرة ألقاها الشيخ محمد عبده، ضمن المحاضرات العامة للموسم الثقافي الثاني، الدورة الأولى، مطبعة الأزهر 1960م، ص 80

(28) ايضا (29) الحجر 15: 9

(30) الزمر 39: 23، حفني،إعجاز القرآن البياني: ص 53

(31) أحمد، ابن محمد بن حنبل، مسند أحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 ھ/ 2000 م، رقم الحديث : 704، 111/2

(32) المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم الحديث : 2040، 741/1

(33) عتر ،حسن ضياء الدين ،المعجزة الخالدة ، دار البشائر الاسلامية ، 1415 ھ/ 1994 م ،ص 9،10

(34) الزخرف 43: 44، ايضا